

الفصل الثاني والعشرون

وستضعف الأسباب بيننا وبين المدينة التي نشأ فيها خالد ونشأت فيها أسرته، والتي نشأ فيها علي وأسرته أيضًا، والتي أقام فيها الشيخ الكبير وخلفه عليها ابنه الشيخ الشاب، ستضعف هذه الأسباب وتترت حتى تُوشك أن تنقطع؛ لأنها قويت بين خالد وبين مدينته التي استقبل فيها الحياة؛ فقد استقر خالد في وطنه الجديد حتى أصبح من أهله، واتصلت المودة بينه وبين أهل المدينة وأهل القرى المجاورة، وأخذت زيارته هو لمدينته تقل وتتباعد، وأخذت زيارات أهل المدينة له تقل وتتباعد أيضًا، وجعل الشيخ يمرُّ بالمدينة في طريقه إلى الصعيد فيقيم فيها اليومين أو الثلاثة، ويمرُّ بها في عودته إلى مدينته فيقيم فيها اليوم والليلة، لا يلقي من أهلها كيدًا، بل يلقي منهم تجلّة وتكريماً؛ لأنه ضيف خالد، ولأن إمامه بالمدينة عيد للفقراء والأغنياء جميعاً، وجعل أبو خالد يزور ابنه في الشتاء كل عام، فينفق عنده الشهر أو الأشهر كريماً موفوراً ناعم البال، وجعل الحاج مسعود يزور ابنته مرّتين في العام لا يقيم في كل مرة إلا الأسبوع يحملونه عليه حملاً، ثم يعود إلى داره وشيخه وماله.

واطردت أمور القوم على هذا النحو، والأيام تمضي والأيام تجيء، والصبية يكبرون، والكهول يشيخون، والشيخ يسعون إلى الهرم أو يسعى إليهم الهرم، ومن أولئك وهؤلاء من يُدرکه الموت في إبانة أو يختطفه قبل أوانه، ليكون البكاء والحزن ثم يكون العزاء والسלו، فقد ماتت زبيدة ولما تتقدم بها السن، وتركت لزوجها ابنيها سالمًا وعليًا، فحزن سليم وبكى، ثم تعزى سليم وسلا، واتخذ له زوجًا ثانية وثالثة، وكاد يسلك طريق عمّه الشيخ لولا أن الحوادث أدبته فأحسنّت تأديبه، ولولا أنه كان يلقي من زوجيه نكرًا أي نكر، ولو استطاع لطلق إحداهما، ولكنه كان يكره الطلاق، ويُشفق على زوجيه أن يصيب إحداهما المكروه إن تحولت عن داره، فكانت عشرته لهما محنة، ويحتسب ما